دراسات الأدب المعاصر، السنة الخامسة، خريف ١٣٩٢، العدد التاسع عشر: صص ٦١ - ٦٧

معروف الرّصافی؛ نبذة من حیاته وأدبه

توفیق رجبی*

تاریخ الوصول: ٩١/٩/١٠
تاریخ القبول: ٩٢/٢/١٨

الملخص

یعتبر *معروف الرصافی* أحد أربعة مجیدین من شعراء العراق المحدثین؛ والآخرون هم *الزهاوی*، و*الکاظمی*، و*الشبیبی*. ولد *الرصافی* ببغداد حوالی سنة ١٨٧٥ م، وتعلّم القراءة والکتابة، وحفظ القرآن فی مکاتب العراق، ثمّ دخل المدرسة العسکریة، ولکنّه نفر منها، وانصرف إلی الدراسة الحرّة والمدارس الدینیة، وقد وجهه شیخه الآلوس وجهة أدبیة. کان *الرصافی* فقیراً فاشتغل بالتعلیم والصحافة، وعین مفتشاً للغة العربیة بوزارة المعارف، ثمّ انتخب نائباً فی المجلس النیابی، وکانت وفاته سنة ١٩٤٥م. أنتج *الرصافی* کثیراً من المؤلّفات وديوان شعر کبیر، أکثر فیه من الوطنیات والوصف والاجتماعیات. کان الشاعر کثیر العطف علی البائسین، یصوّر آلامهم، ویستحثّ قومه علی الرّفق بهم، وقد برع فی هذا اللون براعة فائقة لأنه ذاق مرارة العیش وقسوة الحیاة.

الکلمات الدلیلیة: الرّصافی، شعراء العراق، شاعر البؤساء، سجینة الدّار، الوصف، القصیدة.

* عضو هیئة التدریس بجامعة آزاد الإسلامیة فی أردبیل. **T.rajabi@gmail.com**

المقدمة

خلّف *الرصافی* آثارا كثيرة فی النثر والشعر واللغة والأدب منها:

۱.«الأناشيد الوطنية»: وهی طائفة من الأناشيد الوطنية، والأدبية نظمها الشاعر لطلاب المدارس.

۲.«نفح الطيب فی الخطابة والخطيب»: وهو مجموعة محاضرات ألقاها علی طلبة مدرسة الواعظين فی الآستانة.

۳. «دروس فی آداب اللغة العربية»: وهی محاضرات ألقاها فی دار المعلمين العالية ببغداد.

۴. «رسائل التعليقات»: فی نقد كتاب «النثر الفنی» وكتاب «التصوّف الإسلامی».

۵.«علی باب سجن أبی العلاء» وفيه ردّ علی *طه* حسين فی كتابه «مع أبی العلاء المعرّی».

۶.«تمام التربية والتعليم» وهی مجموعة شعرية صدر عام ۱۹۲۴م.

۷.«الرؤيا» رواية للأديب التركی ناصف كمال نقلها الرصافی إلی العربية.

۸.«ديوان الرصافی» ويعرف بالرصافيات، تولی طبعه وتبويب قصائده وتفسير غريبها *محی الدين الخياط* و*الشيخ مصطفی الغلاييني*، وقد رتّب علی أربعة أبواب: الكونيات، والاجتماعيات والتاريخيات والوصفيات؛ وطبع سنة ۱۹۱۰م(الفاخوری، ۱۹۸۶: ۴۸۷).

يعتبر *الرّصافی* شاعر الاجتماع والسياسة حيث دعته البيئة وأحوال العصر إلی الاهتمام بشؤون الوطن والناس وموضوعات كحرية الرأی ونشر العلم والقضاء علی الجهل وإخراج المرأة من ظلمتها، والاعتماد علی النفس، ونبذ التخاذل، ونشر لواء العدل، وإنصاف الطبقة البائسة حتی عرف ب"شاعر البؤساء".

كان همّه الأوّل أن يوقظ الناس من غفلتهم فيتطلّعوا علی الوجود تطلّع الأحياء ويخرجوا من الجمود إلی الحركة، ومن الخمول والتشنّج إلی العمل الذی ينفع. يری *الرصافی* أنّ السبب الرئيسی فی تخلُّف الشرقيين عامة، والعرب خاصة هو انتشار الجهل فی ربوعهم ويقول: «العلم هو النّور الذی يهدی والفكر الّذی يبدع واليد التی تصنع، فالجهل موت»(العقاد، ۱۹۴۷: ۳۵۵)؛ و*الرصافی* يريد الحياة لأمته فيشجّع علی طلب العلم لأنّ العلم عنده يضمن الحياة العزيزة، ويرفع الإنسان إلی مستوی إنسانيته ويفتحُ

له أسرار الوجود، ویجعل طاقات الطبیعة بین یدیه، فیخترع وینجز ویبنی ویکتشف المجهول ویخترق أجواء الفضاء، کما یغوص إلی أعماق الماء وبالعلم تزدهر الأوطان حیث یقول:

بِالعلمِ تَنتظمُ البلادُ فإنّه لِرُقی کلِّ مدینة مِرقاة

اتُّهم *الرصافی* فی دینه کما اتّهم *الزّهاوی*، وما هو بالکافر ولا المارق، وإنما هو المؤمن الّذی لا یری الدین فی القشور والتعصّب والجهل. والدین فی نظره هو الإیمان النیر، والعمل الخیر. والدین خیر وصلاح، والتعصّب ظلمة وجهل. لم یأتِ *الرصافی* بجدید فی موضوع المرأة، ومرجع آرائه فی هذا الباب إلی أنّ المرأة العربیة جاهلة، ولابدّ من تثقیفها لأنها مربیة النشء وهی محتقرة ومظلومة ولابدّ من تحریرها لأنّها إنسان کامل الإنسانیة، وهی سجینة الدّار ولابدّ من إطلاقها لأنها کالرجل خُلقت لتعمل. والرصافی یقارن ما بین المرأة المسلمة الیوم والمرأة العربیة القدیمة.

وإذا نظرنا نظرة فاحصة إلی شعره نری أن الوصف شائع فی شعر *الرصافی* حیث نجده فی کلّ باب. یصف علی سبیل المثال القطار، وقد رکبه من الآستانة إلی سلانیک، وعجب لما وجد فیه من سرعة انتقال ومن تغلّب علی الصّعاب ثم من دعة وهناءة(الفاخوری، ۱۹۸۶: ۴۹۷).

وقاطِرةٍ تَرمی الفَضا بدخانها وتَملأُ صدرَ الأرضِ فی سَیرها رُعبا
تسَاوَی لَدیها السَّهلُ والصَّعبُ فی السُّری فما استَسهَلَت سهلاً ولا استصعَبَت صَعباً

وقال یصف الشمس الغاربة، وهو فی الرّیف بین المروج الخضر:

نَزلَت تَجُرُّ إلی الغروبِ ذُیولا صَفراءَ تُشبِهُ عاشِقاً مَتبولا
تَهتَزُّ بینَ یدِ المَغیبِ کأنّها صبٌّ تَمَلملَ فی الفراشِ علیلا
ضَحکَت مشارِقُها بِوجهِکَ بُکرةً وبکَت مَغاربُها الدِّماءَ أصِیلا

حینما نتصفّح دیوان *الرصافی* نجد فیه قصائد ومقاطع حکمیة کثیرة وکأنّه قد أرادَ اَن یکون معلماً ومرشداً لأبناء قومه، حیث یقول:

لَعمرُک ما کلّ انکسارٍ لَهُ جَبرُ و لا کلّ سرٍّ یستطاعُ به الجَهرُ
وما الناسُ إلا خادِعٌ أدرکَ المُنی وآخَرُ مَخدوع لها غیرُ مُدرِکِ
لو أخلصَ الإنسانُ فی إحسانِه فیما أرادَ لما تَعادی اثنانِ

لـو قـاسَ كـلُّ فتـى سِـواه بِنفسِـه لَم يـرجُ أن يجـزى علـى الإحسـانِ

وهناک موضوعات أخرى فی شعره منها البؤس والفقر، فنراه کثیراً ما عرض *الرّصافی* للبؤس والبؤساء، والفقر والفقراء، والیتم والأیتام. قال فی حدیث له: «کانت مشاهد البؤس من أشدّ الدّواعی عندی إلی نظم الشّعر».

أمّا الأقاصیص الحزینة فنجدها فی قصائد مشهورة من مثل «الیتیم فی العید»، «الفقر والسقام» و«أم الطفل فی مشهد حریق»، و قد ظهر الشاعر فی هذه القصائد بمظهر الإنسانیة وروح کریمة حافلة بالحنان والشفقة، وقلب کبیر تملأه المحبة لبنی الإنسان وعین سخیة تذرف الدّمع علی شقاء البشر. وکثیراً ما نراه فیها یتوجّه إلی الله طالباً الرّحمة للبائسین، ویتوجّه إلی الأغنیاء طالباً الشفقة ومدّ ید المعونة إلی المعوِزین.

وفی هذا المجال نذکر شذرات من قصیدته «إمرأة بائسة»:

لَقیتُها لیتنی ما کنتُ ألقاها تمشی وقد أثقلَ الإملاقُ مَمشاها
أثوابُها رثة والرّجل حافیة والدّمعُ تذرفُه فی الخدّ عیناها
بکت من الفقر فاحمّرت مدامعها واصفرّ کالورس من جوعٍ محیّاها
مات الّذی کان یحمیها فالدّهر من بعده بالفقر أشقاها
ویسعدها الموتُ أفجعها والفقر أوجعها والهمّ أنحلها والغمّ أضناها
فمنظرُ الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مَرآه مقرون بمرآها
کرّ الجدیدینِ قد أبلی عباءَتها فانشقّ أسفلها وانشقّ أعلاها
ومزّق الدهر ویلَ الدّهرِ مِئزرها حتّی بدا من شقوق الثوب جنباها
تمشی بأطمارها والبرد یلسعها کأنّه عقربٌ شالت زُباناها
حتّی غدا جسمها بالبرد مرتجفاً کالغُصنِ فی الریح واصطکت ثنایاها

(محمد السید، ۱۹۷۰: ۱۶۷)

یتحدّث الشاعر فی هذه الأبیات عن أرملة مصورا سوء حالها وشدّة بؤسها، حیث یقول: رأیتُ هذه المرأة وکنتُ أتمنّی ألّا أراها، کانت تمشی بطیئة متخاذلة وقد أنهکها الفقر وأثقل خُطاها الحرمانُ. تمزّقت أثوابُها وحفیت قدماها، وتساقطت علی خدّها دموعُ عینیها. لقد أکثرت من البکاء حتی التهبت کالجمر عیناها وأنهکها الجوع حتّی اصفرّ کالورس لونها؛ فقد مات زوجُها الذی کان مبعث أمنها وسعادتها وقسا علیها الدهر فقضی

بفقرها وبؤسها. فتجمّع علیها ألم الموت والفقر، وسبّب لها الحزن الهزال والمرض، حتی صارت صورة صادقة للحزن وتمثالاً حیاً للشقاء والبؤس. لقد بُلیت عباءتُها من تعاقب الأیام علیها فتمزّق أعلاها وانشقّ أسفلها. ومزّق الدهر ثوبها حتی ظهر من ثقوبه جسمُها. وکان البرد یتسرّب إلیها وهی تسیر فی أسمالها، فیلسعها کما تلسع العقرب الشائلة فریستها. فأخذت أسنانها تضطرب وتصطکّ، وجسمها یهتزّ فی البرد اهتزاز الغصن فی مهب الریح.

واستطاع الشاعر فی الأبیات السابقة أن یعطی صورة حیة مؤثرة للمرأة البائسة الحزینة التی فقدت زوجها، وساء فی الدنیا حظها، فهی دامعة العین، هزیلة الجسم، حائلة اللون، ممزّقة الثوب، بائسة المنظر. والشاعر یستخدم الصورة الشعریة فیجمع جزئیات المنظر، فتحس کأنک واقف أمام المرأة، تراها وتألم لمنظرها، وإلیک قوله:

أثوابها رثّة والرِّجل حافیة والدّمع تذرفه فی الخدّ عیناها
بکت من الفقر فاحمرّت مدامعها واصفرّ کالورس من جوع محیاها

(الرصافی، ۱۹۳۱: ۲۱۳)

حیث تجد أمامک امرأة مسکینة دامعة شاحبة. واقرأ قوله:

حتّی غدا جِسمها بِالبرد مُرتجفا کالغُصنِ فی الریح واصطکت ثنایاها

ترها أمامک مرتعدة مرتجفة من شدّة البرد وقسوة الزمهریر(محمد السید، ۱۹۷۰: ۱۷۸).

والشاعر یلجأ إلی التشبیه عندما یقول: واصفرّ کالورس، کأنّه عقرب، کالغصن فی الریح کما یمیل إلی الاستعارة عند قوله: أثقل الإملاق ممشاها، مزّق الدهر مئزرها، البرد یلسعها؛ وأخیرا یعتمد علی الکنایة فی قوله: فمنظر الحزن مشهود بمنظرها والبؤس مرآه مقرون بمرآها، فهی حزینة بائسة.

وتعتبر هذه القصیدة نموذج من نماذج الشعر الاجتماعی الذی یتناول ناحیة من نواحی المجتمع فیعرضها أو یعالجها. وهذا الغرض فی قصیدة *الرصافی* من أغراض الشعر التی ظهرت فی هذا العصر وبرز فیها بعض الشعراء *کالرّصافی* و*حافظ* و*شوقی*.

وإذا کان من حدیث عن الموسیقی فی هذا النصّ فإنها هادئة تناسب موضوعه المشحون بالأسی والحزن، والشاعر التزم فی قصیدته تقسیم البیت إلی شطرین

متساويين، كما التزم قافية واحدة ختم بها جميع الأبيات، كما كان يفعل قدامى الشعراء والقصيدة من بحر البسيط. وللقصيدة وحدة فنية تربط بين أجزائها وتجعلها بناء متماسكاً يشدّ بعضه بعضاً، والوحدة الفنية للقصيدة من مظاهر التجديد فى هذا العصر.

وأخيراً نذكر ما قال *شوقى ضيف* فى حقّه: «شاعرنا *الرصافى* لايعيش لنفسه، إنما يعيش لمواطنيه، وقد يمتدّ بصره إلى أعلى، فيعيش للإنسانية كلّها، وهو يستخلص لشعبه كلّ الميزات التى تحيله شعباً ممتازاً فى خلقه وروحه وعقله، ولعلّه من أجل ذلک كان *الرصافى* يشيد دائماً بالعلم ويدعو إلى إعطاء المرأة حقوقها، وإنه ليفزع إلى ربّه يطلب منه الرحمة بالبشر، حتى فى الموت والجزاء، وإنه ليتساءل فيم هذا الاختلاف بين الناس؟ ولماذا كان بعضهم فى نعيم وبعضهم فى عذاب؟ وإنّ ذلک ليشقى *الرصافى*، بل لكأنّه هو الشقى المحروم الذى ينعاه، فالحياة مظلمة من حوله، وروحه فى قلق دائم تريد للناس جميعاً أن يكونوا سعداء، وأن يزايل الشقاء البشر كلَّهم من مسلمين وغير مسلمين، وهو لذلک يكثر من الأنين، ومن دعوة الأغنياء إلى أن يمسحوا على بؤس البائسين. ولعلّ فى ذلک كلّه ما يدلّ على أنه كان يحلم للناس وخاصة من مواطنيه بعالم سعيد»(ضيف، ۱۹۵۹: ۳۸).

نتيجة البحث

كانت هذه لمحة وجيزة عن مواقف *الرصافى* من الحياة، ونرى هذه الآراء فى شتّى قصائده ولاسيما «تنبيه النيام»، «رقية الصريحى»، «ايقاظ الرقود» و «بعد الدستور». *فالرصافى* شاعر الاجتماع والسياسة من الدرجة العالية؛ يعطف على الفقراء البائسين لأنه ذاق مرارة البؤس والفقر، ويشير فى شعره إلى مشاكل اجتماعية بمواقفه النقدية. وهو إلى ذلک لشاعر القومية العربية الذى دعا العرب إلى توحيد صفوفهم وإحياء مجدهم القديم.

المصادر والمراجع

ابن منظور، جمال الدین بن مکرم. ۱۹۸۸م، **لسان العرب**، بیروت: دار التراث العربی.
البستانی، بطرس. ۱۹۷۷م، **محیط المحیط**، بیروت: مکتبة لبنان.
الرصافی، معروف. ۱۹۳۱م، **دیوان الرصافی**، بیروت: دار الفکر.
ضیف، شوقی. ۱۹۵۹م. **دراسات فی الشعر العربی المعاصر**، القاهرة: مکتبة مصر.
العقاد، عباس محمود. ۱۹۴۷م، **معروف الرصافی**، بیروت: دار الجیل.
الفاخوری، حنّا. ۱۹۸۶م، **الجامع فی تاریخ الأدب العربی**، بیروت: دار الجیل.
محمّد السید، عبدالرحمن. ۱۹۷۰م، **المغنی فی النصوص والأدب**، بیروت: دار العلم للملایین.

المقالات

نادری، اسماعیل. آبان ۱۳۸۹، «**معروف الرصافی؛ محلل اجتماعی للفقر والحرمان**»، فصلیة دراسات الأدب المعاصر، جامعة آزاد الإسلامیة فی جیرفت، سنة ۲، عدد ۸، صص ۱۱۱- ۱۲۴.